

أحداث مفصليّة في مسيرة التاريخ الفلسطينيّ الحديث والمعاصر

جوني منصور*

كانت الحرب العالميّة الأولى (1914 – 1918) آخر مراحل الحكم التركيّ في فلسطين، حيث تعرّض الوطن إلى عدد من المعارك التي وقعت بين بريطانيا والدولة العثمانيّة (التركيّة). وحين وضعت الحرب أوزارها، أُعلن عن انتهاء الحكم التركيّ الذي دام ما يربو عن أربعة قرون بقليل، ليحلّ محله الاحتلال البريطانيّ بصيغة انتداب استمرّ حتى عام 1948.

كانت بريطانيا قد أصدرت خلال الحرب العالميّة الأولى "تصريح بلفور" في الثاني من تشرين الثاني عام 1917، وعدّت فيه الوكالة اليهوديّة أن تساعد بكلّ مستطاعها المشروع الصهيونيّ الهادف إلى إقامة وطن قوميّ لليهود في فلسطين. ولم يتطرقّ التصريح مطلقاً إلى حقوق أهالي البلاد الأصليين السياسيّة والتاريخيّة، إذ اعتبرهم طوائف غير يهوديّة.

وشهدت فلسطين سلسلة من الثورات ضدّ السياسة البريطانيّة المؤيّدّة للمشروع الصهيونيّ، وأبرزها: ثورة أيّار عام 1920 التي أوضحت موقف الفلسطينيين المعارض للمشروع الصهيونيّ، ثمّ ثورة العام 1929 المعروفة بـ "ثورة البراق"، والتي دافع فيها الفلسطينيون عن مقدّساتهم، إذ ادّعى اليهود أنّ لهم حقاً في الحائط الغربيّ للمسجد الحرام في القدس، فاندلعت شرارة الثورة وامتدّت إلى كلّ فلسطين، وحكمت السلطات البريطانيّة على ثلاثة شبّان فلسطينيين بالإعدام شنقاً في سجن عكا في الـ 17 من حزيران عام 1930، وعُرفت هذه الحادثة بـ "الثلاثاء الحمراء". ولم تتأخّر حركة الشيخ عزّ الدين القسام عن البدء بالثورة ضدّ سياسات الإنجليز التمييزيّة، فجمع حوله مجموعة من مربيه وأعلن الكفاح المسلّح في أحراش "يعبد"، فطوّقه الإنجليز مدعومين من منظمّة الهاغاناه الصهيونيّة، وقُتل هو ومجموعة من رفاقه. كانت حركته انطلاقة للثورة الفلسطينيّة الكبرى (في عام 1936) التي بدأت بالإضراب العامّ، وتطوّرت إلى مواجهات وصدّامات عنيفة بين الثوّار الفلسطينيين وقوّات السلطات الانتدابيّة، وذلك على خلفيّة قيام السلطات البريطانيّة بتسهيل دخول المهاجرين اليهود إلى فلسطين، وبيع الأراضي ونقلها إلى مؤسسات صهيونيّة، وتعيين يهود في وظائف رئيسيّة في الجهاز الإداري. وبضغط بريطانيّ، تدخل ملك العرب ورؤساؤهم، وطالبوا القيادة الفلسطينيّة بوقف الإضراب والثورة واعدين إيّاهم بحسن نوايا بريطانيا.

لكن بريطانيا، بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية، تفرّغت لمعالجة مستعمراتها ومن بينها فلسطين، حيث أعلنت أنها فشلت في تقريب وجهات النظر بين العرب واليهود، لذا فإنها ستحوّل القضية إلى هيئة الأمم المتحدة. فأصدرت هذه الهيئة قرار التقسيم في الـ 29 من تشرين الثاني عام 1947، الذي بموجبه تُقام دولة يهودية وأخرى عربية. رفض العرب قبول هذا القرار معتبرين إياه غير عادل، بينما هلّل اليهود له، لأنه يمنحهم اعترافاً دولياً بحقوقهم في فلسطين. ولتنفيذ القرار، شرّعت المنظمات العسكرية الصهيونية بعد صدوره بالهجوم على القرى العربية والأحياء العربية في المدن التي ستدخل ضمن حدود الدولة اليهودية، ممّا أدى إلى مقتل وجرح آلاف الفلسطينيين، وإلى تهجير وترحيل عشرات آلاف الفلسطينيين عن مدنهم وقراهم، وتحويلهم إلى مشرّدين ولاجئين بلا مأوى أو رعاية صحّية. ثمّ حين خرجت بريطانيا من فلسطين معلنة نهاية الانتداب البريطاني، في الـ 15 من أيار عام 1948، أعلن دافيد بن غوريون (زعيم الوكالة اليهودية وقائد منظمة الهاغاناه) عن إقامة دولة إسرائيل، فدخلت الجيوش العربية في حرب مع هذه الدولة، وكانت نتيجتها خسارة الجيوش العربية للحرب جرّاء فساد السلاح، وسوء إدارة القتال، وضعف التنسيق بين القيادات المختلفة، وتمكّنت إسرائيل من احتلال المزيد من الأراضي الفلسطينية وتهجير قرابة ثمانمائة ألف فلسطيني، وتدمير مئات القرى والمدن. وتُعرّف هذه الحرب بكلّ حيثياتها بـ "نكبة فلسطين".

تشرّد الشعب الفلسطيني في أرضه، وفي لبنان وسوريا والأردن والعراق ومصر، وفي سائر أنحاء العالم. وعاش معظم المشرّدين في مخيمات أقامتها خصيصاً لهم وكالة الغوث (أونروا). ويبلغ عدد اللاجئين الفلسطينيين المسجّلين في العام 2010 لدى هذه الوكالة نحو أربعة ملايين ونصف المليون من أصل عشرة ملايين فلسطيني في العالم.

ولم يستسلم الشعب الفلسطيني لِمَا حلّ به، بل بادر بكلّ ما أوتي من إرادة وقوّة لاستعادة أرضه ووطنه، فخرجت عمليّات الفدائيين من مصر والأردن نحو المستعمرات في إسرائيل. ثمّ حين نضج الوضع السياسي والفكري، أعلن عن تأسيس جيش التحرير الفلسطيني وحركة "فتح" في العام 1965، ثمّ عن إقامة منظمة التحرير الفلسطينية كجسم يجمع الفصائل الفلسطينية كافة تحت سقف واحد لتوجيه النضال نحو هدف واحد.

وقامت المنظمة بإطلاق عدّة عمليّات فدائية كخطف الطائرات، والهجوم على ثكنات عسكرية ومستعمرات إسرائيلية، ابتغاءً لفت أنظار العالم إلى عدالة القضية الفلسطينية، ونجحت المنظمة في جذب عشرات الهيئات الدولية وحكومات دول كثيرة إلى الوقوف إلى جانب القضية ودعم الشعب الفلسطيني.

لكنّ المنظمة تعرّضت إلى كارثة كبيرة في أيلول الأسود عام 1970، إذ أخرج العمل النضالي من الأردنّ على خلفيّة مزاعم النظام في الأردنّ أنّ الفصائل الفلسطينية باتت تشكل عبئاً على حياة الناس (أو بالأحرى: خطراً على النظام ذاته). وقدّ مئات من الفلسطينيين حياتهم، وانتقلت القيادة الفلسطينية إلى لبنان. وهناك في لبنان، عملت قيادة منظمة التحرير على إعادة بناء أجهزة المنظمة وإعادة تنظيم حياة الفلسطينيين في المخيمات، إلا أن الاجتياحات الإسرائيلية المتتالية في العامين 1978 و 1982 ساهمت في تصفية مواقع القيادة الفلسطينية. وفي الوقت نفسه، تعرّض

الفلسطينيون إلى مواجهات واعتداءات من تنظيمات عسكرية طائفية وحزبية لبنانية خاضت حرباً أهلية أدت في ما أدت- إلى وقوع مجزرة صبرا وشاتيلا في أيلول عام 1982، التي ذهب ضحية لها عدّة آلاف من الفلسطينيين الأبرياء، ووُجّهت أصابع الاتهام إلى الجيش الإسرائيلي الذي كان قريباً من المخيمين، وإلى ميليشيا الكتائب التي نفذت المجزرة تحت غطاء إسرائيلي. وأخرجت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان إلى تونس، وهناك تعرّض بعض قياديينها إلى الاغتيال (من بينهم خليل الوزير). ومع فقدان زخم ودور القيادة الفلسطينية خارج الوطن، أمسك الفلسطينيون في الضفة الغربية وقطاع غزة زمام القضية بأيديهم، وأعلنوا الانتفاضة الأولى في العام 1987، التي عُرفت بـ "انتفاضة الحجارة"، إذ بالحجارة واجهوا الاحتلال الإسرائيلي. وعندما فشلت مفاوضات التسوية بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية التي أسست بعد اتفاقيات أوسلو عام 1993، أعلن الشعب الفلسطيني مجدداً عن انتفاضته الثانية في عام 2000. وبالرغم من توالي انتفاضات الشعب الفلسطيني، لا يزال الاحتلال الإسرائيلي قائماً من خلال التضيق على حياة الفلسطينيين، من خلال نصب الحواجز، وإقامة جدار الفصل العنصري، ومنع الحركة وحرية التنقل، ومصادرة الأراضي، والاعتقالات، وغيرها.

* د. جوني منصور - مؤرخ من حيفا